الكتب

فى الصيف

لطه حسين

« فى الصيف » بعد « الأيام » دليل بعد دليل على ملكة اخرى كانت مجهولة فى هذا الذهن العجيب ! فقد كان عهد الناس بصديقنا طه عالما غزير البحر ، وباحثا جرىء الرأى ، ونافذا نافذ البصيرة ، وجدليا دامغ الحجة : اما الكاتب الذى يستشف بالالهام حجب الغيب ، ويمنق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيي بالعاطفة خمود الفكرة ، فظل مغمورا بين الأديب الذى يبحث فى ضوء العقل ، والاستاذ الذى يدرس فى حدود العلم ، فلم يكد يظهر الا فى صفحات من ذكرى ابى العلاء نسى فيها المعرى وذكر نفسه ، وفى مقالات نشرت فى السفور صور فيها عواطفه وحسه ، حتى نشرت (الأيام) فعجب الناس ان يكون وراء هذا العقل المتمرد هذا القلب الشاعر ، واقبلوا فى دهشة يتعرفون الى طه التلميذ والأخ والزوج والوالد ، ويتحدثون اليه فى منازله وبيادله وبين أهله ، فيجدون من اللذة فى احاديثه ، امثال ماوجدوا من الفائدة فى بحوثه . ثم جاء كتاب اليوم قاطعا فى الدلالة على بلوغ هذه الشخصية الأدبية الغاية فى كل ناحية من نواحى الأدب ، حتى الناحية التى لا يغنى فيها الخيال عن الواقع ، ولا السماع عن النظر !

قرأ (فى الصيف) اديب كبير فطلب الى طه فى شىء من الدعابة ان يترك العلم الى القصص ، وتقرأ أنت (فى الأدب الجاهلى) فتقول هذا اختصاصه وتلك مادته ، ولعلك اذا سمعته يحاضر أو قرأته يناظر تقول هذا عمله وهذه غايته . وابلغ آيات العبقرية ان تكون فى كل مادة اصيلة ، وفى كل موضوع سامية ، وفى كل غاية مبرزة .

***

طه قصصي من طراز خاص ، أو هو لم ينشأ اليوم أن يكون على غير هذا الطراز . فالأيام وفى الصيف طرائف شتى من الذكريات والتأملات والملاحظات أتالت فى وقت الفراغ على ذهن شديد النفاذ ، وفكر دقيق الملاحظة ، وشعور صادق الحس ، ثم ألف بينها خيال كروح المنطق فيه لذة وفيه عقل ، وأبان عنها أسلوب كأسلوب الحديث فيه طلاوة وفيه فضل ، ثم تقرأ قليلا واذا بك متصل بالكاتب ، مغمور بشعوره ، مسحور بحديثه ، مشغول بتفكيره ، يخرج بك من موضوع الى موضوع ، وينقلك من موضع الى موضع ، دون أن يدع لك السبيل الى استرجاع الذكريات التى هاجها بذكرياته ، واستقبال الخواطر التى جددها بخواطره . فأنت منه كما تكون بين البحر الداوى لا تدرى بماذا استهول على شاعرك ؟ أجلاله أم جماله أم بسعته أم بروعته أم بكل أولئك جميعا ؟ ثم تفرغ من القراءة وتعود الى نفسك فتقول : ربما ولدت هذا المولد ، ونشأت هذا المنشأ ، ودرست هذه الدراسة ، وسحت هذه السياحة ، ورأيت هذه الصور ، وعرضت لى مثل هذه الخواطر ، ونعمت بمثل هذه الأسرة ، ولكن أولئك كلها جف فى خيالى كما يجف نمير الماء فى العود الذابل ، وماتت فى خاطرى كما يموت رنين الصوت فى الصخر الأصم ! ولكنها فى الأيام احيا ما تكون فى ذهن ، وفى كتاب « فى الصيف » أزهى ما تكون فى خيال !! ذلك اذن هو الفن الذى يخص الله به انسانا دون انسان ، وذلك اذن هو ما ينقص الناس فيجدونه فى الفنان !!

***

« فى الصيف » لا يروعك منه الحادث ، ولا تدهشك المفاجأة ، ولا تشوقك العقدة ، ولا تفتك الصنعة ، فانه كما قلت لك مجموعة من الذكريات والتأملات يتشقق بعضها من بعض كما تتشقق الأحاديث ، وانما يأخذ بلبك منه الصدق فى تصوير الفكرة ، والحذق فى نقل الشعور ، والفن الذى تشتد فى المجتمع حتى تشتط ، وترق فى الأسرة حتى تضعف ، والروح التى تحلق فوق الاحداث متمردة ، وتخفض الجناح لأهواء الطفلين الحبيبين حانية ، والألمعية التى تصور بالظن فلا تخطئ اليقين ، وتسمو على جناح الخيال فلا تفوت الحقيقة ، والأسلوب الذى يحار فى تعريفه البيان المكتوب ، وأقل ما يصفه به الكاتب العجلان أنه تفصيل فى غير اطالة ، وبساطة فى غير ابتذال ، وتدفق فى غير كدورة ، وجدة فى غير مجلبة ، واهمال